الأوضاع الاجتماعية

في الخليج العربي

إبان الغـــــ

كشفت البعثات الأثرية في الخليج العربي عن آثار مهمة تربط تاريخ الخليج العربي بتاريخ السومريين في العراق. ويعد الكنعانيون أول من سكن سواحل الخليج العربي. ثم الفينيقيون. كما استوطنت في منطقة الخليج العربي قبائل عربية هى قبائل قضاعة وربيعة واياد، واستقرت في عُمان قبائل الازد من (كهلان) التي نزحت من اليمن بعد انهيار سد مأرب عام ١٢٠ ق.م.

اما على الساحل الشرقي العربي (عربستان)، فقد سكنت أيضا قبائل عربية منذ أقدم العصور[١].

ان القاسم المشترك لأصول التجمعات البشرية في الخليج كونها عربية بدوية المنشأ، تتميز بعلاقات قبلية وروابط عائلية متينة.

فسكان الخليج العربي يمثلون مجموعات كبيرة من القبائل، كانت تقيم على ضفاف الخليج وتخضع مباشرة لشيوخها، ولم يكن للقوى الدولية أي تأثير عليها. ومنطقة نفوذ كل قبيلة تسمى (الفريج) أي الفريق.



د. فوزية العطية

لقد شكلت منطقة الخليج العربي من الوجهتين الجغرافية والبشرية منطقة واحدة . فالقبائل والعشائر العربية التى تقطنها تتحرك من طرف إلى آخر دون قيود أو حدود، الأمر الذي ادى الى تداخل هذه القبائل والعشائر ، وتناثر افخاذها على طول شواطىء الخليج العربي باعتبارهم ابناء عمومة . فأسرة سعودلها قرابة بالاسرة الحاكمة في الكويت والبحرين (عنزة) وتنتشر قبيلتا شمر وعنزة في كل من العراق والكويت والسعودية . وتنتشر عشائر العلمي والعوامل والمزاريع والقواسم والشرقيين وبنى ياس والرساب والمناصير في كل من دبي والشارقة وعجمان وام القيوين وابوظبي .

ومن الملاحظ ان القبائل التى تحضرت كانت تقيم على السواحل وتشتغل بالغوص على اللؤلؤ وصيد الاسماك والتجارة .

اما عمان التى كانت اكثر الاقاليم ازدحاما بالسكان واقربها الى المجتمعات الحضرية فقد عرفت بنزعتها القبلية . وكان عرب الجنوب اول الوافدين للاقليم . استمرت سلطتهم حتى مجيء عرب الشمال وبالرغم من التزاوج بين المجموعتين ، فإن العصبية القبلية وقفت حائلا دون قيام اتحاد بينهما ، واخذت كل فئة تحاول ان تسيطر على الاخرى .

لقد استمرت منطقة الخليج العربي خاضعة لسيطرة القبائل العربية التى تنتمى الى ثلاثة تجمعات قبلية كبيرة نزحت من داخل شبه الجزيرة العربية ، هى القواسم وبنو ياس والعقرب .

وقد حافظت تلك القبائل على علاقاتها القبلية ، كما احتفظت بظواهر نشاطها الاقتصادي البدوى والتى من اهمها الرعى والزراعة ثم الغوص على اللؤلؤ والتجارة .

ورغم ان سواحل الخليج العربي كانت تمثل اشد مناطق العالم جدبا وفقرا ، فقد تحول الخليج العربي الى مركز عالمي للملاحة في العصر الاموى وازدهرت فيه التجارة . واصبح اول منطقة عربية تتعرض الى تغلغل النفوذ الاوربي ، ومرت بجميع مراحل هذا التغلغل منذ بداية ظهوره وحتى تطوره الى اعلى المراحل فى التغلغل والسيطرة الكولونيالية . فمنطقة الخليج العربي تعتبر نموذجا امثل للصراع الدولى . فقد تصارعت فيها الدول الاوربية الكبرى البرتغال وانجلترا وهولندا والمانيا وروسيا وفرنسا . وقد كانت ايضا محط انظار الدولتين الشرقيتين الكبيرتين تركيا وايران . الا انهما اصبحتا فى مرحلة ظهور النظام الكولونيالى اضعف من ان تسيطرا على سير الاحداث في المنطقة(٢) .

وسنحاول في هذه الدراسة ان نتعرف على اهمية الخليج العربي والعوامل التى دفعت البرتغاليين الى اكتساحه فى المبحث الاول ، اما المبحث الثانى فنتناول فيه بعض الاوضاع الاجتماعية في الخليج العربي اما المبحث الثالث فيخصص

لدراسة بعض مظاهر الانشطة الاقتصادية في الخليج العربي واثرها في الحياة الاجتماعية .

المبحث الاول :

أهمية الخليج العربي والعوامل التى دفعت البرتغاليين الى اكتساحه :

يمثل الخليج العربي نقطة وصل بين القارات الثلاث ، آسيا وافريقيا وأوروبا. كما يمثل جسرا طبيعيا لتجارة الشرق القادمة من الهند ومن الشرق الاقصى والمتجهة الى اوربا ، وكذلك التجارة الاتية من اوربا عبر بلاد الشام والعراق فالخليج العربي .

ولاهمية الخليج العربي تاريخيا كممر بحرى للثروات وطريق للتجارة اتجهت نحوه انظار القوى التوسعية الاستعمارية الغربية فى العصر الحديث . فتوجه نحوه الباحثون عن الذهب والتوابل والعبيد خاصة بعد التطورات الاقتصادية والاجتماعية الهامة فى المجتمعات الاوربية التى انتقلت من مرحلة المجتمع الاقطاعى إلى المجتمع الرأسمالي الجديد ومتطلباته واساليبه الضرورية فى التوسع فتنافس عليه الاوربيون خلال الاربعة القرون الاخيرة ، واصبح البرتغاليون اول نذر الشر[٣] . فالمصالح التجارية سبقت المطامع السياسية فى منطقة الخليج العربي . وظل الانجليز متخلفين في التوسع التجارى ، بينما اسرع البرتغاليون الى استكشاف الاراضي فيما وراء الهند[٤]..

فالتجارة كانت تنتقل عبر ثلاثة طرق : الطريق الاوسط وتنقل فيه البضائع بحرا الى هرمز ومنها الى شط العرب ثم الى بغداد لتحملها القوافل الى حلب ،انطاكيا والشام واحيانا كانت تنتقل الى القاهرة والاسكندرية . والطريق الجنوبى على البحر الاحمر وتنقل فيه السفن العربية البضائع من الهند والشرق الاقصى الى سواحل البحر الاحمر ومنها الى القاهرة والاسكندرية . اما الطريق الشمالي وهو عبارة عن مسالك متشعبة من الهند والصين تلتقي ف سمرقند وبخارى وتفترق مرة اخرى ليمتد بعضها نحو بحر الخزر ليقطع روسيا الى سواحل البلطيق . ويمتد بعضها الآخر فى استراخان إلى ضفاف نهر الفولجا ليسير شرقا إلى ارمينيا عبر تبريز ليصل الى سواحل البحر الاسود . وكانت اغلب هذه الطرق التى تقطعها القوافل تخضع للسيطرة العربية[٥]

اما المدن الاوربية التى كان لها أعظم الاثر في تجارة المشرق فى مطلع القرن الخامس عشر فهى جنوا والبندقية وبعض المدن الالمانية .

الا ان جنوا فقدت مكانتها بعد سقوط القسطنطينية فى أيدى الاتراك عام ١٤٥٣م ، وفقدت البندقية ما بقي لها من امتيازات بسبب الصراع المستمر بين المماليك في مصر . لذلك اصبح واضحا ان الدولة التى تتمكن

من اكتشاف طريق يصل الى الهند ستحقق ثروة ومكانة عظيمتين . وقد كانت البرتغال قد بدأت بتكريس جهودها فى البحث عن هذا الطريق بهدف التوسع والوصول الى الهند والشرق الاقصى مباشرة دون الحاجة الى توسط المسلحين البنادقة في نقل التجارة .

كانت البرتغال في الاصل جزءا من قشتالة ، احدى الممالك المسيحية الصغيرة فى شمال اسبانيا فتحت فى القرن الثانى عشر اقطاعية للنبلاء الفرنسيين الذين كانوا قد شاركوا في الحرب الصليبية الاسبانية وتحدى هؤلاء الاقطاعيون الفرنسيون ملك قشتالة واقاموا ملكية مستقلة بمساعدة الانجليز . وفي اوائل القرن الخامس عشر اكتمل الكيان السياسي للبرتغال واخذت تتطلع الى التوسع ومد نفوذها . على مناطق جديدة .

وفي عام ١٤٩٧م قام المستكشف البرتغالي فاسكودي جاما برحلة للدوران حول القارة الافريقية . اكتشف خلالها رأس الرجاء الصالح وقد كان للملاحين العرب دور اساسى فى هذه الاستكشافات وان كانت قد سجلت للبرتغاليين . فالبحار العربي أحمد بن ماجد[٦] (ليث البحر)* هو الذي قاد سفينه فاسكودى جاما واوصلها الى الهند .

وبعد ان اصبح الطريق واضحا امام البرتغاليين وللدوافع الاقتصادية والسياسية والدينية بدأت البرتغال عسكريا تتجه نحو الطريق الجديد وبدأت حملتها الاولى في الفترة من ١٥٠٢ ـ ١٥٠٥ للسيطرة على الهند . وفي عام ١٥٠٦ كلف القائد البرتغالي البوكيرك بالتوجه نحو الخليج العربي .

يبدأ تاريخ الاستعمار الاوربي باكتشاف رأس الرجاء الصالح وهو على مرحلتين المرحلة التجارية وتنتهى بالثورة الفرنسية والمرحلة الصناعية الرأسمالية والاستعمار الحديث ويبدأ بالثورة الصناعية[٧] .

ويعتبر وصول فاسكودى جاما الى الهند في مايو عام ١٤٩٨م أول بوادر الانقلاب العالمي الحديث ونشوء الرأسمالية الاوربية الحديثة وهيأ لها سبل السيطرة على العالم . وكان من نتائجه اندثار طرق التجارة البرية بين الصين والهند والبحر المتوسط التى كانت حينذاك تعتبر اساس الحياة الاقتصادية فى الشرق الادنى والاوسط والركيزة الاساسية للحضارات التى عرفتها المنطقة .

وبعد ان ثبت البرتغاليون اقدامهم على سواحل الهند وأسسوا بها حكومة يرأسها نائب الملك واصلوا تقدمهم لاحتلال مالقا وجزر الهند الشرقية فى الشرق الاقصى ليمنعوا وصول التجار العرب الى مناطق انتاج التوابل . واستمر القائد البرتغالي البوكيرك بالتوجه بأسطوله . الى باب المندب للسيطرة على الاماكن الاسلامية المقدسة وذلك تحقيقا لاهدافهم الصليبية وتثبيطا للمقاومة الاسلامية فى الهند .

وبدأ البرتغاليون بالقضاء على قوة هرمز والموانىء التابعة لها باعتبارها القوة التى يمكن أن تقف امام تحقيق اهدافهم . ثم تقدموا الى مهاجمة الموانىء العربية فدمروا قريات ومسقط وشهد اهل عمان المسالمون فظاعة الغزو البرتغالي وعنفه وارهابه . إذ عمدوا الى قطع انوف وآذان السكان بهدف اذلالهم . واستخدموا نظام القرصنة ضد التجارة العربية(٨) . واتضحت اطماع البرتغاليين واهدافهم الاستعمارية عندما بدأوا بمفاوضة الدولة الصفويه لتقسيم مناطق الشرق الاوسط ومنها المنطقة العربية . واتضحت مطامعهم الصليبية عندما اشترطوا ان تكون فلسطين ضمن حقهم . فاكتساح البرتغاليين للاراضي الاسلامية يعد استمرارا للحروب الصليبية لذلك ساندتها البابويه وساعدتها ماديا ومعنويا .

وفي عام ١٥١٤م بدأ البرتغاليون بالتوغل داخل الخليج العربي فسيطروا على البحرين عام ١٥١٥م وحطوا فى جزيرة المنامة وفرضوا الجزية على سكان البحرين . وقد واجه البرتغاليون مقاومة عربية كبيرة خاصة بعد وفاة قائدهم البوكيرك(٩).

وبسبب المقاومة العربية هذه تمكن الخليج العربي من التخلص من السيطرة البرتغالية قبل نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر . واقتصر وجود البرتغاليين فى بعض الاديرة التى اقاموها لفترة من الزمن .

وكان الشاطىء الغربى للخليج العربي في تلك المرحلة يبدو خاليا من اى تنظيم سياسي يشبه الدولة . باستثناء عمان ، حيث كانت اقرب الى المجتمعات الحضرية بسبب ازدحامها بالسكان ووجود المذهب الاباضي الذي عرف بنظام الامامة على اساس البيعة لا التوارث وان تحولت الامامة الى ملك يرتكز فى حكمه على القوة فى ظل الاسرة النبهانية التى امتد نفوذها الى عدن(١٠) .

لقد بايعت النخبة ، التى كانت تضم المثقفين بثقافة دينية الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٢٤م . وقد واجه الامام ناصر صعوبات كبيرة في توحيد عمان . ولم تدرك القبائل العربية في حينه ضرورة الوحدة واهميتها فى حركة تحرر الخليج العربي . وكثيرا ما كانت تغلب النزعة الذاتية على بعض زعماء القبائل بشكل دفع بعضهم أحيانا الى الاستعانة بالبرتغاليين انفسهم حفاظا على مراكزهم لذلك امضى العمانيون وقتا طويلا قبل الشروع بمحاربة البرتغاليين . وقد حارب العمانيون دون ان يتحالفوا مع اية قوة اجنبية .

بدأت الاشتباكات بين قوات ناصر بن مرشد وبين البرتغاليين تتجه للمنازعات القبلية . فقد اتجه مانع بن سنان الحميرى حاكم (سمايل) الى القيادة البرتغالية فى صحار وطلب مساندتها ضد الزعامة الاباضية . فأرسل الامام ناصر احد قواده (سعود بن رمضان) لقمع الفتنة

وألحق بالبرتغاليين خسائر كبيرة . وافق البرتغاليون على اثرها على الصلح .

كان الامام ناصر بن مرشد يقيم في عاصمته نزوى وعندما كان يجد تجمعات قبلية تساند الامامة ولديها الاستعداد للجهاد يبادر بالتعاون معها لمحاصرة الحصون والقلاع البرتغالية . ولم يكن له جيش نظامي وانما تتجمع القبائل عند نشوب المعركة لتتفرق عند عودة الامام الى عاصمته .[١١] .

وكانت القلاع البرتغالية في مسقط تلفظ انفاسها حينما تمت البيعة لسلطان بن سيف اماما . ودخل العمانيون مسقط عام ١٦٥٠م وسلطان بن سيف هو ابن عم ناصر بن مرشد تم اختياره اماما على اساس الكفاءة وليس الوراثة . وقد ساد اسلوب الاختيار في عهد اليعاربة وان كان مقيدا بأسرة معينة .

بعد تطهير عمان من فلول البرتغاليين ، وسع العمانيون دائرة الصراع ضد البرتغاليين لتشمل الخليج العربي والهند وشرق افريقيا .

المبحث الثاني :

الاوضاع الاجتماعية في الخليج العربي :

في القرن السابع عشر بدأت الدول العربية الحديثة في منطقة الخليج العربي تنمو وتؤكد صبغتها العربية . واختلف التشكيل السياسى للمنطقة من عصر الى عصر آخر . ففى القرن السابع عشر كانت عمان اكبر قوة سياسية في منطقة الخليج العربي ثم ظهرت امارات عربية اخرى . وبدت السعودية في بعض الفترات اكبر قوة عربية في المنطقة .

ومن الناحية الاجتماعية والحضارية لا توجد اية فوارق بين هذه الاجزاء العربية في منطقة الخليج العربي . الا ان التشكيلات السياسية الحالية لدول الخليج العربي تشمل :

١ ـ العراق . ويقع عند رأس الخليج من ناحية الشمال .
٢ ـ الكويت ، وتقع عند رأس الخليج في الجانب الشمالي الغربي .
٣ ـ السعودية ، وتطل على الساحل الغربي للخليج العربي .
٤ ـ البحرين ، وتقع وسط الخليج في مدخل رئيسي من خلجانه (دوحة سلوى) .
٥ ـ قطر ، وتقع وسط الخليج من الزاويه الجنوبية الغربية .
٦ ـ الامارات وتقع في الجنوب الغربي من الخليج العربي .
٧ ـ عمان ، وتقع عند اقصى الطرف الجنوبى الغربى للخليج العربى .

كانت تقطن منطقة الخليج العربي منذ بدء التاريخ موجات متتابعة من الشعوب السامية وغير السامية . نزحت من مشارف الصحراء من اتجاهين . الأول يمتد على طول الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية والثانى عبر الباب الشمالي للبوريمى .

ان الأصل الأسطوري لجميع القبائل العربية يرجع الى الشقيقين قحطان وعدنان ، فالجماعات التى دخلت عمان الكبرى على طول الاراضي الحدودية للمناطق التى استوطنتها القبائل في شبه الجزيرة العربية تنتسب الى قحطان . اما الجماعات التى دخلت عن طريق المناطق الشمالية لواحة البوريمى ، فهى عدنانية الاصل .

وتشير الادلة الى ان الهجرة من شبه الجزيرة العربية بدأت اثناء القرنين الاول والثانى للميلاد .

وطريقة الحياة البدوية الرعوية موجودة منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف عام . وقد تطورت هذه الحياة على مدى قرون من التكيف حسب الظروف البيئية القاسية واصبحت جزءا من الحضارة السائدة في منطقة الخليج العربي .

وتوصف هذه الحضارة العامة بكونها تكيف اجتماعي معقد ومتوازن غالبا ما يوصف (بالثلاثية الايكولوجية) اى نسق يتضمن ثلاثة انماط من المجتمعات المتكاملة وهى : البدوية والريفية والحضرية . لكل منها طريقته فى الحياة واسلوب المعيشة وتعمل فى كيان ونمط متميز . الا ان هذه الانماط او القطاعات الثلاثة يسند بعضها البعض الاخر لتحافظ بالتالى وتصون المجتمع الكلى[١٢] . وان كان الطابع البدوى هو الغالب .

من السمات الاساسية للحياة البدوية هى الهجرة التى تتحدد فى ضوء التقلبات الموسمية والبيئية وذلك سعيا وراء المياه والمراعى .

والصحراء وان كانت تفرض على سكانها البداوة بحكم طبيعة ظروفها ومواردها الاقتصادية الا انها لا تعتبر المجتمع الوحيد للبداوة .

ويمكن تصنيف البدو وفق اسس ومعايير مختلفة . حيث يتم تصنيفهم وفقا لنمط الحياة الغالب على معيشتهم ، او تبعا لنوع الحيوان السائد والذي يشكل اساس حياتهم ويحدد نمط معيشتهم . او استنادا الى مواسم التنقل والترحال[١٣] .

اما تصنيفهم وفقا لنمط الحياة الغالب على معيشتهم فهو :

١ ـ البداوة الرعوية وينتشر هذا النوع من البداوة فى الجزيرة العربية وسيناء والصحارى السورية والصحراء الكبرى ، خاصة فى المغرب وفى السودان حيث ينتشر رعاة البقر .

٢ ـ بداوة البحر او بداوة الصيد وتنتشر فى منطقة الخليج العربي وشواطىء شبه جزيرة سيناء ، وتمارس هذه الفئة ايضا نوعا من الرعى والزراعة .

٣ ـ بداوة النخيل وتنتشر فى ساحل عمان وتقوم هذه الجماعات ايضا برحلات جماعية للصيد فى البحر بعد جمع التمور .

٤ ـ بداوة الطير وهى في ترحال وتنقل دائم لقنص الطيور. وترتبط حياة البدو الاجتماعية بحياتهم الاقتصادية وظروف البيئة الطبيعية

التى يعايشونها . وتنتشر القبائل في اماكن متفرقة متنقلة وراء الماء والكلأ . وتنعدم فكرة الربح والفائدة سواء فى الانتاج او التبادل كما ان حياة التنقل لا تساعد على تجميع الثروة بمفهومها الاقتصادي حيث تكون الثروة نوعية متمثلة فى عدد الجمال ورؤوس الماشية . وهى ذات وظيفة اجتماعية اكثر منها اقتصادية .

وتحاول كل قبيلة ان تسيطر على منطقة محددة فيها موارد تكفى لسد احتياجات افرادها وان كانت هذه المناطق تتغير من وقت لآخر . واذا ما تجاوزت القبيلة حدود القبائل الاخرى فنتيجة ذلك تكون الحرب(١٤) . لذلك تضطر القبائل الضعيفة الى اللجوء لقبيلة اخرى طالبة حمايتها لقاء دفع ضريبة (الخوة) وهي عبارة عن جزية تدفع لقاء توفير الحماية .

ويتمتع شيخ القبيلة بامتيازات وسلطات واسعة تشمل توزيع المراعى على الاعضاء وتسوية النزاعات فيما بينهم وله حق تمثيل القبيلة أو أى عضو من اعضائها في المعاملات الهامة الاجتماعية منها والاقتصادية والسياسية .

وتقوم المجتمعات البدوية عموما على العصبية والولاء ومجموعة من التقاليد وروابط القربي التاريخية الواقعية والاسطورية اذ تعتقد كل عشيرة انها تنحدر من جد اعلى حقيقيا ام اسطوريا .

اما وحدات البناء الاجتماعي في المجتمع البدوى فهى الاسرة وتمثل النواة الاساسية ، ثم الفخذ فالبطن فالعشيرة ثم القبيلة .

فالاسرة تعتبر ركيزة المجتمع البدوى والاسر التى ترتبط بروابط النسب حتى الجد الخامس تشكل الفخذ . والعشيرة تتكون من عدة افخاذ وقد تنصهر مجموعة من العشائر او القبائل وتتوحد نتيجة لا ستقرارها او قد تندمج عائلة او عشيرة فى قبيلة قوية لتحتمى بها . او قد تتفق مجموعة من القبائل المتجاورة لمقاومة عدو مشترك .

وترتبط عشائر الخليج العربي بعضها ببعض لاسباب عديدة منها الشرف والنسب والقوة والنفوذ .

والبادية حتمت على اهلها ان يكونوا فرسانا محاربين بسبب غزو بعضهم بعضا .

وللمحارب عند العشائر البدوية منزلة عظيمة واذا سقط الفارس عن جواده لا يجوز قتله . اما اذا قتل في الحرب فيعيش اولاده مكرمين وتصطحب النساء فى الحروب لمداواة الجرحى وشد الهمم وتعيير الهاربين .

وللحرب تقاليدها وآدابها الخاصة . فلابد من اعلان الغزو او الحرب قبل بدئها . والعشيرة المغلوبة التى تبغى السلم . يمكنها ان تلجأ الى قبيلة اخرى لتقوم بدور الوساطة وان فشلت فإنها تشد ازر القبيلة المظلومة .

ويشيع فى المجتمع البدوى نوع من

العدالة الاجتماعية . والبدو يكرهون الضيم ولا يصبرون على المجرم حتى يثأروا منه . فالبيئة البدوية فرضت عادات وتقاليد وقيما متأصلة فى شخصية البدوى .

كما تميل العشائر البدوية الى كثرة الانجاب . خاصة من الذكور لانهم يرثونها ويحفظون أسماءها .

وتمثل صفات الكرم والضيافة احد مظاهر حياة البداوة الاجتماعية الهامة . وهما مفروضان على كل عضو من اعضاء القبيلة .

اما العصبية القبلية فهى حافز لاظهار البطولة والفروسية فالقبيلة مظهر من مظاهر الائتلاف الاجتماعي فى المجتمع البدوى - فالبدو يهتمون بنسبهم لتأكيد وحدتهم والتعصب لقبيلتهم والاعتزاز والتفاخر بها[١٥] . وهذا حتمته الظروف الطبيعية القاسية التى يعيشونها .

اما في المجتمع الريفى فقد اخذ يتزايد تأثير العائلة الممتدة وكانت الزراعة فى القرن السادس عشر في منطقة الخليج العربي قليلة نسبيا وهى تعتمد على الامطار . كما حلت الاكواخ المبنيه من الطين محل الخيام . وكانت تتناثر بعض القرى المأهولة بين بساتين النخيل أو حول اراضي القمح . وجلبت اشجار النارنج والاترج والرمان وزرعت فى عمان والبصرة[١٦] .

وبقيت القبيلة اساسا للحياة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية واستمر تنظيم العلاقات الاجتماعية مستندا على التقاليد والاعراف الاجتماعية التى تعتبر بمثابة قانون غير مكتوب . الا ان تأثير العائلة أخذ يتزايد في المجتمع الريفى . واستمر الزواج الداخلى في الاسرة حفاظا على وسائل الانتاج .

وتنبثق عن صلة الرحم داخل القبيلة صله (الخمسة) أى اقارب الفرد حتى الدرجة الخامسة . وهم المسؤولون عن الثأر له . أما الرئاسة فهى وراثية واذا كان الوريث غير اهل لها يتم اختيار اقرب الافراد من الشيخ المتوفي[١٧] .

واستمر الشيخ في المجتمع الريفى يقوم بمسؤوليته عن كل امور القبيلة والقيام بواجبات الضيافة . ويحل الشيخ المشكلات بين اعضاء قبيلته او بينهم وبين القبائل الاخرى وفقا للعرف العشائري السائد .

وبقيت التقاليد البدوية قائمة حتى لدى الفئات الاجتماعية التى نزحت نحو المدن واستقرت فيها . وذلك لأن العقلية تمثيل وانعكاس للجماعة والمكون الاساسي لها . فالعقليه تبقى مستمرة حتى وان تغير المجتمع[١٨] الامر الذي كان يؤدى الى نشوب النزاعات والصراعات بسبب شدة الولاء القبلى .

كما كانت هناك مدن مزدهرة وبلاد تجارية . ومع ان سفن التجار الهنود كانت تزور موانىء البحر الاحمر وشرق افريقيا كما وصلت السفن الصينية إلى الجنوب العربي ومقديشو ومالندى الا ان السيطرة على المحيط

الهندى كانت للتجار العرب وكان لهم النفوذ التجارى على الساحل كله من سفالية في جنوب الساحل الافريقي الشرقي حتى جزيرة سومطرة[١٩] .

لقد ازدهرت التجارة والملاحة فى الخليج العربي قبل تغلغل النفوذ البرتغالي نتيجة لاستقرار الامن وما قامت به الدولة الاسلامية من مقاومة ومنع أخطار القرصنة في مياه الخليج العربي.

واستطاع البحارة والتجار العرب ان يكسبوا ثقة الحكام في سواحل الهند وسيلان والصين بسبب حسن سلوكهم واسلوبهم القويم في المعاملات التجارية . واشتهرت العديد من المدن ومن اهمها:

١ ـ البصرة ، اشتهرت بكونها مركزا هاما لتوزيع السلع الاتية عبر الخليج العربي أو من الشرق الاقصى .

٢ ـ البحرين ، واشتهرت بكونها مصائد للؤلؤ ومركزا رئيسيا لتجارته .

٣ ـ القطيف . واشتهرت بالزراعة خاصة زراعة النخيل .

٤ ـ عمان . اشتهرت بموانئها فى نقل التجارة الشرقية خاصة ميناءها الرئيسي (صحار) .

٥ ـ مسقط ، اشتهرت بكونها محطة تجارية ومركزا لتموين السفن وتتوفر فيها الابار والنخيل[٢٠] .

لقد نمت المدن وتطورت نتيجة لهجرة تجمعات بشرية من داخل جزيرة العرب لعوامل اقتصادية او سياسية مكونة من تحالف قبائل أو أفخاذ .

فأصول التجمعات السكانية فى المدن هى جماعات عربية بدوية المنشأ ـ متنقلة ثم استقرت ـ مكونة قرى او مدنا صغيرة على امتداد شواطىء الخليج العربي محتفظة بعلاقاتها العائلية والقبلية . كما حافظت على بعض ظواهر انشطتها الاقتصادية البدوية وتعودت اضافة لذلك انماطا اقتصادية جديدة ذات مردود اقتصادي افضل هى التجارة والغوص لاستخراج اللؤلؤ[٢١] .

وكلما تقادم وجود القبيلة فى المدن واصبحت اكثر استقرارا ظهر البناء الأسرى الكبير أو (الاسرة الممتدة) . فتصبح الاسرة هى اساس البناء الاجتماعي تمتلك او تستأجر وسائل الانتاج . وتتركز السلطة الاجتماعية والاقتصادية بيد رب الاسرة . وينتشر الزواج الداخلي حفاظا على وسائل الانتاج فى الاسرة . وان ظهرت جماعات اخرى رسمية وغير رسمية فى المدن لها تأثيرها الاجتماعي والاقتصادي .

المبحث الثالث :

الانشطة الاقتصادية وأثرها فى الحياة الاجتماعية :

ظهرت فى الخليج العربي الى جانب الرعى والزراعة انشطة اقتصادية أخرى اثرت فى الحياة الاجتماعية والعلاقات الانتاجية . مثل التجارة وصيد اللؤلؤ وصيد الاسماك . وكانت تلك الانشطة الاقتصادية على

اختلافها تعتمد على الطبيعة .

لقد اثرت العوامل البيئية والايكولوجية فى السكان ودفعتهم الى البحث عن مصادر الرزق فى البحر وفى ظروف عمل شاقة .

وقد كان للغوص على اللؤلؤ تأثير كبير في حياة نسبة عالية من سكان الخليج العربي . حيث يمثل احد الانماط الاقتصادية الهامة فى المجتمع حينذاك . والمؤثرة في الحياة الاجتماعية بشكل عام . وفي حياة الفئات الاجتماعية المتوسطة والفقيرة بشكل خاص . فالاعمال البحرية مثل الغوص على اللؤلؤ وصيد الاسماك والحرف الساحلية الاخرى مثل صناعة القوارب والسفن كانت تشكل محور الحياة الاقتصادية والاجتماعية[٢٢] وقد كان يتم احضار مواد صناعة القوارب والسفن مثل الخشب والحبال المصنوعة من الياف جوز الهند والمسامير من الهند . ونظرا لاهمية الغوص وصيد اللؤلؤ فى حياة سكان الخليج العربي سنتناوله بشيء من التفصيل .

بداوة البحر اوبداوة الصيد :

وينتشر هذا النوع من البداوة فى الكويت وساحل عمان وبقية بلاد الخليج العربي وشواطىء شبه جزيرة سيناء ، وتمارس هذه الفئة ايضا نوعا من الرعي والزراعة الى جانب نشاطها في الصيد والغوص على اللؤلؤ[٢٣] .

والغوص من اكثر المهن صعوبة وخطورة . فهو يحتاج الى عناء وصبر طويل . واكثر دول الخليج انتاجا للؤلؤ هى البحرين وقطر والكويت ودبي والشارقة وابوظبى وأم القيوين .

وصيد اللؤلؤ اهم حرفة عرفها التاريخ فى الخليج العربي قبل اكتشاف البترول . فقد اثرت فى العادات والتقاليد ونمط المعيشة . لقد عرف العرب ركوب البحار منذ اقدم العصور . وبعد ظهور الاسلام ركبوه للصيد واستخراج كنوز البحر والتجارة . وترتبط عملية الغوص بمواسم معينه الاول يسمى (الغوص الكبير) وهو يستمر لمدة اربعة اشهر (حزيران - ايلول -) . ويسمى ابتداء الموسم (الركبة)* وانتهاؤه (القفال) . اما الموسم الثانى فيستمر لفترة ما بين ٣ - ٤ اسابيع ويطلق عليه اسم (الردادة) وهذا يكون ما بين تشرين الاول وتشرين الثانى وتتوقف في فترة الغوص احتفالات الزواج والختمة والختان وايفاء النذور بسبب ابتعاد رب الاسرة ورجالها . وتقام عادة احتفالات خاصة في توديع الغواصين وفي استقبالهم اما موقع استخراج اللؤلؤ فيسمى (المغاص وكل غطسة للصيد تسمى (هيرا) اذا كانت حتى العمق العادي . اما اذا كانت على جزيرة تحت سطح الماء (مرتفع) فتسمى (نجوة) . وافضل المغاصات هى القاع المستوى الصافي المياه ورماله مائلة الى البياض فوق شعب المرجان . وتكون الأصداف ملقاة على الرمال او ملتصقة التصاقا خفيفا مع قطع

المرجان او الاعشاب البحرية واحيانا قد تتعلق المحارات ببعضها البعض فى كتلة واحدة تسمى (تبرى) جمعها (تبارى) . والتبرى الواحدة قد يكون فيها من اللؤلؤ ما يعوض السفينة عن موسم كامل(٢٤) .

ويمكن تقسيم العاملين فى الغوص الى قسمين : المولين والعاملـين . وتتألف وحدة صيد اللؤلؤ مما يلى :

١ ـ النوخذة وهوربان السفينة وقد يكون مالكها او مستأجرها او مجرد موظف عند المالك وهو الحكم في المنازعات وله مكانه متميزة .

٢ ـ المقدمى . وهو نائب النوخذة والمسـؤول عن صـدر السفينـة وشراعها .

٣ ـ البندار . او المحاسب .

٤ ـ السكونى ، وهي مأخوذة من السكان وهو المسؤول عن تسيير السفينة .

٥ ـ الغاصة أى الغواصون .

٦ ـ السيب ، وهـو المشرف عـلى الغاصة ويفهم اشـاراتهم ويتميز بالذكاء والقوة .

٧ ـ الرضيف وهو مساعد السيب فى شد الغواص ومراقبته ومراقبة البحر من الاسماك الخطيرة .

٨ ـ التباب : وهو مساعد السيب ويتولى اداء الاعمال الخفيفة .

٩ ـ الطباخ .

١٠ـ النهام وهو الذي يشجع الرجال عن طريق الغناء .

١١ـ الطواش وهو التاجر الذي يشرى اللؤلؤ لبيعه فى الاسواق .

١٢ـ العزال . وهو شخص يغوص لحسابه الخاص معه سيبه ويدفع مقابل ذلك مبلغا محددا للنوخذة او مالك السفينة .

ويعتبر الغوص بدائيا والغواص الماهر هو من تمكن من البقاء أطول فترة تحت سطح الماء . وترسـو السفينة فى المنطقة (الهير) التى يحددها (النوخذة) ويلبس الغواص لباسا خاصا . ويحشو اذنيه بقطع من الصوف او شمع العسل ويسد انفه (بالفطام وهو ملقط من الخشب ويعلق (الديين) فى رقبته ليضع فيه المحارات ويلبس في يديه أغطية لحماية الجلد ويربط بحبل (الجدا) ويقذف نفسه في البحر في موقع يتراوح عمقه بين ٨ ـ ١٦ قامة . وعندما يشعر بضيق التنفس يهز الحبل ليسحبه (السيب) للعودة الى سطح الماء ليملأ رئتيه بالهواء ويعود للغوص ثانية ويقوم الغواص بحوالى ٥٠ غطسه يغطس بين ٤٠ ـ ٧٥ ثانية ثم يصعد لفترة ٢ ـ ٤ دقائق وتتراوح مدة العمل اليومى بين ١٢ ـ ١٤ ساعة يغوص الغواص خلالها ويستريح . وعندما يكون الجو معتدلا يغوص ساعة ويستريح ساعة امـا في الصيف فيغوص ساعـة ويستريـح نصف ساعة .

ويبدأ العمل مبكرا حيث يستيقظ الغواص قبل صلاة الفجر ويصلى ويفطر تمرا وشايا وقهوة . ثم يغوص بعد طلوع الشمس لجمع المحار وبعد الغروب يقول النوخذة الى من ينوب

عنه (اطووا حبالكم) فيخرج الغواص الى ظهر السفينة . يصلى المغرب ويتعشى أرزا وسمكا وينام بعد صلاة العشاء.

ويتعرض الغواص الى مخاطر عديدة فاذا اغفل السيب اشارته قد يختنق ويموت . بالاضافة الى تعرضه للجرجور (سمك القرش) او انفجار طبلة الاذن أو لداء الرئتين او الالتهابات الجلديه .

وغالبا ما يتمرن الاطفال على الغوص في عمق ذراع لالتقاط الاصداف وهناك نظام اجتماعي وبناء طبقي خاص بالعاملين ينتظمون فيه حسب ادوارهم الاجتماعية . فالغاصة يشكلون قاعدة الهرم ثم النوخذة والطواش والتجار . ويختلف عدد بحارة المركب فهو يتراوح بين ١٠ و٤٠ شخصا ويكون عدد الغاصة عادة اقل من عدد السيوب .

العلاقات الاجتماعية :

تتميز العلاقات الاجتماعية بالطاعة والخضوع. فوحدة العمل هى السفينة يتميز مالكها النوخذة بالسلطة المطلقة وتضع العلاقات العبء الاكبر على الغواص ولا يحصل نتيجة تعرضه للخطر إلا على الفتات . واذا توفي الغواص ولم يؤدما بذمته من دين يقوم النوخذة بملاحقه ابنه ليحل محله[٢٥] .

كان الغوص يعتبر عملا انتاجيا ويختلف في هذا عن بقية الانشطة الأخرى مثل الصيد والزراعة التى كان محصولها يستخدم لاشباع الحاجات الاستهلاكية المباشرة للجماعة : في حين ان حصيلة الغوص تباع داخليا او خارجيا . فالطواش او الطواويش اى صغار التجار يشترون اللؤلؤ في مناطق استخراجه نقدا او بالمقايضة ليبيعوه للتجار . ويقوم الدلال بدور الوسيط بين الطواويش والتاجر .

ويتم تكوين اعضاء الوحدة الانتاجية من العاملين على ظهر السفينة على أسس قرابة او قبيلة كما ان تقسيم العمل في انشطة الغوص لم يرتكز على اساس الانتماء القبلى و العرقى كما كان الحال فى تربية الحيوانات والزراعة والحرف البدوية حيث كانت تربية الابل تقتصر على الوحدات القبليه العليا . تليها الوحدات التى تمارس الصيد والزراعة ثم اصحاب الحرف الاخرى فالغوص يعتمد على الخبرة والمهارة[٢٦] . والغاصة عادة من العامة فقراء العرب او العبيد الأحرار او العبيد الزنوج . اما السيوب فيقتصر عملهم على ملاحظة المركب وانزال ورفع الغاصة الى سطح الماء . وهم عادة من الغواصين السابقين يقومون بهذه المهنة نظرا لتركهم الغوص بسبب كبر السن أو سوء الحالة الصحية . اما عملية فتح القواقع والتى تتم بواسطة سكين معوجة تسمى (مغاليق) والتى تتم عادة في الصباح بين صلاة الفجر وابتداء الغوص فيشارك فيها الغاصة

والسيوب والاطفال ويراقب بعضهم الاخر منعا للسرقة . وهي عملية غير مريحة . بسبب رائحة القواقع وما تجتذبه من حشرات .

وعلى الرغم من ان ارتباط العاملين على ظهر السفينة لا يتم على أسس قرابية فإن نظام (السلف) خلف نوعا من الاستمرار القرابى بين اعضاء الوحدة الانتاجية فالابن بمقتضى هذا النظام يخرج للعمل في نفس الجماعة التى كان ابوه يعمل فيها . وهذا اضافة الى أن كيفية توزيع الارباح ادى الى خلق نوع من الاقطاع والقنانة ولم تكن هناك قوانين مكتوبة وانما كان العرف هو السائد وكانت محاكم الغوص تسمى (محكمة السالفة) وهى عبارة عن هيئة مكونة من (النواخذة) للفصل في القضايا والمشكلات التى قد تحدث بين الغاصة والنواخذة .

وأخيرا لابد من الاشارة الى تأثير الدين فى الحياة الاجتماعية فى منطقة الخليج العربي . فالدين الاسلامى انتشر في بداية ظهوره في شبه الجزيرة العربية وفى منطقة الخليج العربي . ودخلت القبائل العربية تحت راية الاسلام . وفي القرن السادس عشر كانت الديانات الأخرى مقارنة بالدين الاسلامي فى منطقة الخليج العربي قليلة ونادرة .

لقد ساهمت مبادىء الدين الاسلامي بشكل كبير في توازن البنى الاجتماعية مما ادى الى تخفيف الاستغلال وعدم ارتكاب المحرمات ورفض الفائدة والوفاء بالدين . وان كان الايمان بالغيبيات والتفاؤل بأشياء والتشاؤم من اشياء اخرى بقي مستمرا .

وقد استطاع العرب وبمساعدة الدين الاسلامي تأكيد الشخصية العربية فى الخليج العربي وتمكنوا فى العصر الاسلامي من مواجهة الاخطار والمحاولات المحلية منها . مثل المحاولات الفارسية فى فرض السيطرة على الخليج وكذلك العربية والدولية(٢٧) .

وقبل السيطرة البرتغالية كان البحارة والتجار العرب يتمتعون بثقه الحكام فى سواحل الهند وسيلان والصين نتيجة التزامهم بتعاليم الدين الاسلامي في معاملاتهم التجارية مع تلك الدول . وكانوا قد تمكنوا ايضا من تأسيس جالية عربية على سواحل تلك البلاد نتيجة احتكاكهم باهاليها وكسب ودهم وثقتهم .

والبدوى عموما يتميز بالايمان العميق ويؤمن بوحدانية الله وباليوم الآخر.

وقد ظهر الاهتمام بتعلم القرآن وختمه خاصة في المدن وهذا مما ساعد على تعلم القراءة .

فالسيطرة البرتغالية على منطقة الخليج العربي والتي امتدت حوالى القرن والنصف اثرت في اضعاف التماسك الاجتماعي وادت الى انكماش هجرات القبائل الى سواحل الخليج العربي ، نظرا للاسلوب

الاحتكارى والقمعى الذي درج عليه البرتغاليون خلال سيطرتهم على بحار الشرق حيث كانت سياستهم محاربة التجمعات العربية في الخليج العربى وتأليب القبائل ومحالفة احداها ضد الاخرى . الا ان القوى العربية ادركت اهمية الترابط الاجتماعي لمقاومة الغزو البرتغالي خاصة للفترة ١٥٨٠ ـ ١٦٤٠ ومما ساعد على نجاح تلك المقاومة بنية المجتمع العربي الاسلامي حينذاك .

د . فوزية العطية كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الهوامش :

(١) خالد العربي . الخليج العربي في ماضيه وحاضره . مطبعة الجاحظ بغداد ، ١٩٧٢ ، ص ١٦ ـ ١٢ .

(٢) د. عبدالجبار مطيري جاسم، ملاحظات حول تغلغل أساليب النفوذ، الاوروبي في الخليج العربي قبل الحرب العالمية الاولى . مجلة الخليج العربي مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة العدد العاشر ١٩٧٨ ص ٤٧ .

(٣) قدري قلعجي ، دار الكاتب العربي ، بيروت ١٩٦٥ ص ٢٥٩ .

(٤) سر ريدر بولارد ، ترجمة حسيب احمد السلمان بريطانيا والشرق الاوسط منذ اقدم العصور ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٩٥٦ ، ص ٩ .

(٥) رسائل الاهالي ، الرسالة الاولى على طريق الهند ، مطبعة الاهالي ، بغداد ١٩٣٥ ، ص ٢٢ .

(٦) د . ابراهيم المشهداني ، د . صبري الهيتي ، د . محمد سعيد عمر ، جغرافية الخليج العربي ، وزارة التعليم العالي بجامعة بغداد ١٩٧٩ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٦ .

(*) له مؤلفات عديدة في اصول علم البحار ويرجع تاريخ تأليفه الى عام ٨٦٦ هـ (١٤٦٢م) .

(٧) رسائل الاهالي المصدر نفسه ص ٢ .

(٨) رس . بكنجهام ، بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان ، ندوة الدراسات العمانية ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٨٠ الجزء السادس ص ١٨٤ .

(٩) د. ابراهيم المشهداني، المصدر، ص ٢٩٦.

(١٠) د . صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٢٥ ، ص ١٣ .

(١١) صلاح العقاد ، دور العرب في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج ندوة الدراسات العمانية ، المجلد الرابع ص ٩٠ ـ ٢٤٩ .

(١٢) نور الضحى ، بدو عمان الوسطى ، ندوة الدراسات العمانية وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، المجلد السادس ص ٣٤٩ .

(١٣) صلاح مصطفى الفوال ، البداوة العربية والتنمية .

(١٤) المصدر نفسه .
(١٥) ابراهيم الشكري ، البداوة في الكويت .
(١٦) ستيفن هيمسلي لونكريك ، ترجمة جعفر الخياط ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، منشورات مكتبة اليقظة العربية ، بغداد ١٩٨٥ ، ط ٦ ص ١٤ ـ ١٥ .
(١٧) مكي الجميل ، البدو والقبائل في العراق ، مطبعة الرابطة بغداد ١٩٥٦ ص ٤٠ ـ ٤١ .
(١٨) المصدر السابق .
(١٩) د . عائشة عبدالرحمن ، تراثنا بين الماضي والحاضر ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٩٥ .
(٢٠) نوال حمزة يوسف ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن السادس عشر ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز الرياض ١٩٨٣ ص ٣٠ .
(٢١) د . محمد غانم الرميحي ، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي ، معهد البحوث والدراسات العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، ١٩٧٥ ص ١٢ .
(٢٢) ج ـ لوريمر ، ترجمة المكتب الثقافي لحاكم قطر ، دليل الخليج للقسم الجغرافي الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع لبنان ١٩٧٠ الجزء الرابع ص ١٣ ـ ١٧ .
(٢٣) يعتقد سكان الخليج في الخرافة القديمة ومفادها ان اللؤلؤ يأتي من الندى او ماء المطر والتقطته القوقعة عند ارتفاعها الى سطح البحر ليلا او وقت المطر .
(*) يعتبر يوم الركبة يوما كبيرا ، يجتمع فيه العاملون امام بيت (النوخذة) للغناء الشعبي الخفيف (الخماري) ليجمعوا الناس لدفع السفينة الى الماء . وفي يوم العودة (القفال) يقام احتفال كبير وتقام الولائم ، وتستقبل النساء ازواجهن الغاصة بالحناء والعطور والاغاني الشعبية ورقصة (المراداة) ، وتدير المرأة شؤون الاسرة اثناء غياب الزوج لموسم الغوص وكانت تشارك ايضا في الرعي والزراعة بالاضافة الى اعمالها المنزلية . الا ان الرجل هو صاحب القرار وسيد الاسرة .
(٢٤) ج . لوريمر ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .
(٢٥) عبدالملك خلف التميمي ، ابعاد التنمية الاقتصادية والاجتماعية في اقطار الخليج العربي ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٥٩ .
(٢٦) د . محمد عبده محجوب ، انثروبولوجيا المجتمعات البدوية ، المكتبة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ١٩٧٧ ، ص ١٣٨ ـ ١٤٠ .
(٢٧) جمال زكريا قاسم ، ندوة الدراسات العمانية وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ، الجزء الثاني ، ص ٣٦٣ .